تاريخ الاجتماع الطبيعي

استرسال في ايضاح المشابهة بين الدماغ الحاكم على البدن والحكومة الحاكمة على الشعب

لجناب الدكتور شبلي شميل

ان الحكماء والطبيعيين غير متفقين على النتيجة السياسية المحصلة من التاريخ الطبيعي وبسبب ذلك حصل نزاع شديد بين اثنين من كبار الطبيعيين والحكماء في هذا العصر وهما هكسلي وسبنسر الانكليزيان. فهكسلي يكره جداً تشبيه الاجتماعات بالاحياء لاستخراج القواعد السياسية من ذلك لانهُ يزعم ان التاريخ الطبيعي لا يدل الاَّ على السياسة الاستبدادية. واما سبنسر فيذهب غير مذهبهِ حيث يقول ان التاريخ الطبيعي يدل على السياسة الحرة ولا ينكر ان هكسلي مصيب في تنكرهِ من النهافت على الاستقراء السريع لان علم الحياة وان كان يعلمنا على نوع ما هو الجسم السياسي وكيف صار الى ما هو عليهِ انما لا يركن اليهِ في معرفة ماذا يصير اليهِ يوماً ما. والعقل البشري ارفع من ان يتخذ الاحياء الدنيا مثالاً لهُ ويقاد لما انقيادًا اعمى. ومن الخطإ ايضاً الاعتماد على مشابهة ظاهرة ناقصة كما يفعل كثيرٌ من السياسيين ممن يبالغ او يجحفُ في استدلالات التاريخ الطبيعي مبيّنين فضل الحكم الملكي بمثال النحل او فضل الحكم الجمهوري بمثال النمل. انما لا ينكر ايضاً انهُ لا يجب ان يُغفَل ادنى شيء في هذا الوجود حيث كل شيء ذو شأن. فتمثيل الجسم الاجتماعي بالحي يؤدي في نظر هكسلي الى حصر الحكومة في مركز معيَّن حصرًا شديدًا حيث يقول "ان الدماغ يفتكر للجسم كلهِ ويشتغل لهُ ويحكم فيهِ حكمًا مستبدًا والاَّ لكان يحقُّ لكل عضلة في انقباضاتها ولكل غدَّة في مفرزاتها ولكل كريَّة في افعالها ان ترفض كل حقّ للجهاز العصبي في ذلك بشرط ان لا تضر بسواها وكيف تكون حالة الجسم يا ترى لو كان كل عضوٍ من اعضائهِ يفعل افعاله من نفسهِ". وردَّ عليهِ سبنسر ان الاعضاء قسمان ظاهرة وباطنة فاذا كانت القوة المحصرة لازمة للظاهرة فليس الامر كذلك في الباطنة فهي تحتاج فقط لما فيها من القوة الغريزية ولا تطلب من الغذاء الاَّ المقدار اللازم لتعوّض بهِ عن العمل الذي تعملهُ وهذا هو المثل في الاحياء. والامر كذلك في العمران فان الناس المحاربين في الخارج والذين هم بمثابة لمضاء المسة الظاهرة في الحي يحتاجون ضرورة الى حكومة مركزية تدبر امرهم. واما الذين في الداخل الذائبون بحركة التجارة والصناعة والذين هم بمثابة اعضاء التغذية والدورة الباطنة

فبالضد من ذلك يحتاجون الى الحرية فاحتياج الاجتماع الى حكومة حرة او مستبدة يختلف باختلاف كون مؤلفًا من امة متعلقة على الصناعة او الحروب . فعلم الحياة لا يدل على الفرض كما يتوهم بعضهم كما انه لا يدل على الاستبداد

وتداخل الحكومة ضروري في كل الاحوال اما هذا التداخل كما يقول سبنسر نوعان موجب وسالب فالموجب كما لو زرعت الحكومة ارضي او اكرهني على اتباع طريقة معلومة في الزراعة والسالب كما لو اقتصرت فقط على ردعي عن التعدي على ارض جاري والحاق الضرر به . وهذا النوع الاخير من التداخل هو اللازم في الجسم الاجتماعي . فتتضمن الحكومة تنفيذ المعاهدات اي العدل وهكذا تكون قد تمت الوظيفة المطلوبة منها قال . الاقتصادي موريلي "ان اهم الافعال التي تقوم بها حياة المملكة تتم بواسطة اناس لا يفكرون بها ولا يعلمون انهم متشاركون بل يسعى كل منهم وراء مصلحته فقط وتتم بضبط واعتناء وانتظام لا يصل اليه جهد افضل المتيقظين" فلو فرض ان رجلاً عهد عليه ان يقدم كل يوم لمدينة كبرى كاحدى العواصم المعروفة كفافها من الزاد وسائر ما تحتاج اليه لما امكنه القيام بهذه العهدة لكثرة الاحتياجات المذكورة واختلافها ولو ألقيت هذه العهدة الى حكومة لما تم لها القيام بها بانتظام ولانفقت عليها النفقات الباهظة اذ يحصل حينئذٍ ما يحصل لو كان الدماغ مكلفًا بالانتباه لكل ما يلزم لتمثيل الدم ولدورته في البدن ولاخراج كل مفرز من غدته . فغذاء كل مدينة يصل اليها يوميًا بدورة ذاتية حركاتها منتظمة كحركات النبض وتداخل الحكومة الموجب لا تكون له نتيجة سوى تعاقب الشبع والجوع على المدينة . وتداخلها السالب يضمن لها حياتها اذ تستقيم معه حركة اسواقها ويصبح اناسها في مأمن بعضهم من بعض في اعمالهم وسائر احوالهم . فتعاون الناس بعضهم مع بعض بحيث لا يرفع احدهم نظره الى ما وراء مصلحته كاف لان يفعل في صلاح حال العمران ما لا تستطيعه حكمة اعظم الحكماء وانتباه اعظم الحكومات

ولقائل ان الافعال التي يفعلها الافراد تحت عامل المنفعة الذاتية وان كانت كافية في الاحتياجات المادية الا انها ليست كذلك في الاحتياجات التي من غير هذا المعنى . فعلى ذلك يجب سبنسر انه من الخطإ ان يظن انه لا يوجد خارجًا عن المنفعة الذاتية الا قوة اجتماعية وهي قوة الحكومة . أليس البشر ما عدا احتياجاتهم الذاتية احتياجات حية وهذه سواء فعلت وحدها او اشتركت ألا تحدث افعالاً جليلة كالافعال الحاصلة عن المنافع الذاتية . أتريد ان تعرف الافعال الاجتماعية للمحبة منفردة كانت او مشتركة انظر الى اعمال اهل البر والاحسان الصادرة عن الافراد او عن جمعيات خصوصية لا بد للحكومة فيها . فالمنفعة والمحبة في نظر سبنسر

كافيان وحدهما للقيام بكل احتياجات الجسم الاجتماعي كما انهما تكفيان لاحتياجات الجسم الحي والحكومة لا يطلب منها الاّ ان تؤدي وظيفة اشبه شيء بوظيفة الدماغ اي ان تكون النائبة عن الامة في احتياجاتها المنفعية والحية سالكة في ذلك سبيل العدل . فدماغ الحيوان مقرّ لنيابة حقيقية عن الجسم كلهِ يلزم ان تكون نموذجًا للحكومة . والامر بالحقيقة كذلك فان الاعضاء ترسل انباءها الى الدماغ وتحصر فيهِ لذاتها وآلامها وتشكو لهُ حاجاتها وتخبرهُ باختلال احوالها كأن الجسم كلهُ مختصر فيهِ . ووظيفة الدماغ الصحيح كما يقول سبنسر في التعديل بين المصالح المختلفة الطبيعية والعقلية والادبية والاجتماعية وذلك هو وظيفة الحكومة المطلوب منها التعديل بين مصالح البشر المختلفة بحيث ان كلاً منهم ينال حقهُ بدون ان يضرّ بالآخر

على ان بعضهم يرى ان نظر سبنسر في تعيين وظيفة الدماغ والحكومة وان كان مصيبًا الاّ انهُ قاصرٌ في بابهِ لان الدماغ وان كان نائبًا عن الجسم كلهِ في مصالحهِ المنفعية والحية الاّ انهُ ليس نائبًا بسيطًا وقاضيًا يقضي في المصالح المذكورة لتعديلها فقط بدون ان يزيد شيئًا عليها بل هو ايضًا عضو الفكرة والارادة والروية فكثيرًا ما يدفع الجسم من نفسهِ نحو امرٍ انقيادًا للفكر رفيع ، والانسان كثيرًا ما يكدر مصلحة نفسهِ الفردية لانضاء مصلحة اعظم كشر حقيقة او ابداء تصوّر جليل . فالحكومة لا يكفي ان تكون بمقام قاضٍ بسيط يقضي في مصالح الامة لتعديلها مقتصرة على الحاضر القريب بل يلزمها ان ترتفع فوق نفسها وفوق مصلحة البعض للنظر في المستقبل البعيد لان الجسم وان كان يحسّ باحتياجاتهِ انما احساسهُ بها مبهم ولا ينضح على صورة الحس ولا الفكرة الاّ في الدماغ . كذلك الاجتماع فيهِ حقوق كثيرة لا يحس بها الا احساسًا مبهمًا مع شدة لزومها لهُ ولا تتجلى الاّ للحكومة فالجهلاء مثلاً لا يشعرون بالاحتياج الى العلم مع شدة لزومهِ ولذلك كان ينبغي على الحكومة ان تسعى من ذاتها لتتميم المشاريع اللازمة كاقامة التعليم الالزامي مثلاً وعدم اغفال كل ما من شأنهِ ان يحفظ مستقبل الامة لئلاّ يسبقها غيرها من الامم في معرض الارتقاء في هذا الوجود فتسوء حالها وتسقط في مهواة الهلكة والخسران

فسبنسر وان كان قد استوفى ما للميل الغريزي من اليد الثوبة في ارتقاء الامم الاّ انهُ في نظر بعضهم قد اغفل امر الروية المجتمعة في الدماغ عن احساسات اجزاء البدن المبهمة التي يلزم ان تبلغ الغاية في الحكومة . هذا واذا نظرنا الى هاتين القوتين اي الميل الغريزي والروية ولم نفصل بينهما نرى انهما ليستا فقط علة كل اجتماع بل علة كل شيء حتى العالم نفسهِ اذ العالم نفسهُ انما هو اجتماع كبير كل جزء من اجزائهِ يشتغل لسلامتهِ وسلامة الكل بما فيهِ من الميل لحفظ ذاتهِ وحفظ علاقاتهِ مع سواهُ وبهذا تمام النظام في الكون